الفصل الثاني
تكنولوجية الكلمة
TECNOLOGIZING THE WORD

في هذا الفصل يقدم المؤلفون نبذة تاريخية عن تطور وسائل الاتصال، من خلال استعراض أربع ثورات مرت بها وسائل الاتصال.

الثورة الأولى: تتمثل في ظهور الكتابة والحروف الأبجدية، وهي التقنية المبكرة للكلمة.

الثورة الثانية: والتي حدثت بظهور المطبعة؛ مما أدى إلى توحيد اللغات وقواعدها وحروفها.

الثورة الثالثة: والتي حدثت بفعل البث الإعلامي؛ مما أدى إلى ظهور الاتصال الجماهيري المباشر على المستوى العالمي.

الثورة الرابعة: وقد جاءت نتيجة ظهور الحاسبات؛ مما نتج عنه الإعلام الاجتماعي، وانفراده بإتاحة اتصال الفرد بالجماعة، واتصال جماعات بجماعات أخرى من خلال شبكات شخصية.

لقد بدأ الحديث عن وسائل الاتصال في العشرينيات من هذا القرن – طبقًا لما جاء في قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية – ثم تبعه الحديث عن ثورة الاتصالات في الخمسينيات، ولكن الاهتمام بوسائل الاتصال يعد أقدم من ذلك بكثير (Briggs and Bunke,2002,1).

ويعتقد المؤلفون أن هناك أربع ثورات مختلفة في تاريخ الإعلام، والتي تعد بمثابة «صدمة الجديد» (shock of the new) لمن عاصر هذه الثورات في وقتها. وكانت هذه الثورات من نتاج ظهور الحروف الإغريقية، واختراع المطبعة، وظهور العلوم الحديثة والبث الإعلامي، متمثلة في ظهور التليفون والراديو والتليفزيون، ثم أخيرًا ظهور الحاسبات، الذي أدى إلى ظهور الإعلام الاجتماعي (social media). قد يكون من الغريب أن يأتي التليفون ضمن قائمة البث، ولكنه مثل الراديو والتليفزيون في أن شبكاته تسمح بالاتصال عبر مسافات جغرافية واسعة. ومن خلال خبراتهم بشبكات التليفون لم يندهش الناس عند ظهور شبكات الحاسبات، فالإنترنت قد أتاح إمكانية اتصال الجماعات بعضها ببعض، من خلال النصوص والمعلومات المرئية. وقد نبعت فكرة التحول أو التغير من شبكات الحاسبات؛ حيث إنها

دمجت أشكالًا متنوعة من وسائل الإعلام. ونحن مثل أقراننا قد تعلمنا أن التغير لم يصلنا مع الكمبيوتر، وأن كل وسائل الاتصال السابقة ما هي إلا لحظات من التداخل، كما سيكشف لنا هذا الفصل.

إن صدمة الجديد في كل ثورة من هذه الثورات كانت تتضمن مشاعر بالتهديد ومشاعر أخرى بفرص جديدة. فعلى سبيل المثال، يبدأ إيريك بارنو (Erik Barnouw, 1975) كتابه: أنبوب الكثرة (Tube of Plenty) بصورة منقولة عن (New York Daily Graphic, 1877) بعنوان: «رعب التليفزيون – خطيب المستقبل»، تظهر هذه الصورة أحد الأشخاص يتساقط منه العرق وهو يخطب أمام ميكروفون متصل بأسلاك متصلة بجماهير حول العالم (بخلفية أن الخطوط تتصل بالمدن والبلاد المختلفة في شتى أنحاء العالم).

Figure 2.1 Terrors of the telephone

فمنذ دخل التليفون إلى فيينا وبودابست، رأى أصحاب الأعمال أن هذه الوسيلة مناسبة لتوزيع الموسيقى. تحمس أهل فيينا المثقفون للاشتراك في خدمة التليفون؛ لكي يستمتعوا بالاستماع إلى مغنيهم المفضل وموسيقاهم المفضلة. وتشير كارولين مارفين

(Carolyn Marvin) في كتابها: «حينما كانت التكنولوجيا القديمة شيئًا جديدًا» (When old technologies were new, 1988) إلى أن وسائل الاتصال الجديدة مثل التليفون – أفسدت العلاقات الاجتماعية، وأرست عادات جديدة، تمثلت في عزل الأشخاص والعائلات عن ممارسة الحياة العامة في مجتمعاتهم. وفي إطار أقل حدة، تصف كارولين كيف أن الناس أصبحوا يتحدثون بصوت أعلى عندما يتحدثون في قطاعات بعيدة، وكيف أنهم كانوا خائفين من أن تصيبهم أمراض معدية عبر التليفون. انظر كيف يستخدم الناس الآن التليفونات المحمولة في الأماكن العامة. فهم يتحدثون بصوت عال في بادئ الأمر، ثم يخبرون محدثيهم عن الأماكن التي يتحدثون فيها «أنا في السيارة»، أو «أنا في المركز التجاري»؛ حتى يبرروا مواقفهم. وهذا الأمر يقدم مثالًا لنفس الإثارة – فيما يتعلق بالتغير والتكنولوجيا – التي ظهرت في المراحل السابقة لتطور الاتصال.

ورغم أنه كانت هناك مخاوف في ذلك الوقت من أن التليفون سيحل محل الكتابة والصحف – إلا أن ظهور وسيلة اتصال جديدة لا يعني بالضرورة اختفاء ما قبلها. فمن الناحية التاريخية، ثبت أن وسائل الاتصال المختلفة كانت تتوافق مع تغير الأحداث، مثلما توافقت ثقافة الخطابة مع ثقافة الطباعة، والتي بدورها توافقت مع ثقافة البث المباشر، وهكذا. وكما يقول براوديل (Braudel, 1975) فإن وسائل الإعلام تعمل في أطر تاريخية متآلفة. ويقول أيضًا إنه في أي لحظة من لحظات التاريخ يمكننا أن نجد نتائج عناصر اقتصادية تتعايش جنبًا إلى جنب في ذات الوقت، مثلما تعايش النظام الإقطاعي جنبًا إلى جنب مع النظام الرأسمالي، والذي تعايش بدوره مع الاشتراكية، وهذا لا يعني أنه في وقت من الأوقات قد يسيطر شكل من الأشكال الاقتصادية. المبدأ نفسه يمكن تطبيقه على وسائل الإعلام في المجتمع. فعندما دخلت المطبعة حياة الناس تعايشت جنبًا إلى جنب مع ثقافة كتابة المخطوطات، وهو الشكل الذي كان مسيطرًا في ذلك الوقت.

الحروف الإغريقية للكتابة

obeikandi.com

إن السطور الأربعة المتوازية السابقة ليست خطأ مطبعيًّا، ولا خطأ من الناشر، ولا من المؤلفين أنفسهم، ولكنها خطوط مستقيمة رسمها المعلم في العصور الإغريقية والرومانية القديمة على لوحة الكتابة، حيث كان التلميذ يقوم بتقليد هذا النموذج الذي رسمه المدرس، وقد أكدت الآثار التي تم العثور عليها في عصر من العصور الهيلينية والرومانية على وجود هذا الأسلوب في التعلم (David Harvy, 1978, 65). وقد صاحب تعلم الكتابة عند الإغريق والرومان تعلم القراءة جنبًا إلى جنب؛ للتعرف على ما يحدث في الحضارات الأخرى.

وقد توارثنا عن الإغريق والرومان أن نضع الحروف على السطر الأخير. أما اللغات الهندية والنيبالية، فقد اعتادت أن تضع الحروف على الأسطر العلوية. كما أن الكتابة الصينية القديمة كانت تكتب وتقرأ من اليسار إلى اليمين في خطوط رأسية. في كل الأحوال تبرز الحاجة لوضع نظام وإدارة للكلمة المنطوقة من خلال نظام بعينه. فنظام الأبجدية يتكون من أربع مراحل تتلخص في:

1- تعلم الحروف الأبجدية.

2- تعلم مقاطع الجمل.

3- التعرف على الكلمة ذات المقطع الواحد، والكلمة متعددة المقاطع.

4- تعلم الجمل.

وهذا النموذج ينطبق على كل الثقافات في النصوص التي تستخدم الحروف الأبجدية.

إن الكتابة بين السطور أو في مربعات - كما هو الحال في اللغة الصينية - أصبح اليوم أمرًا عاديًّا، وأصبح معمولًا به في المدارس في كافة أنحاء العالم، ودخول الأبجدية والكتابة أدى إلى تغيير في الحياة.

إن كتابة الإلياذة والأوديسا بين عامي 700 و550 قبل الميلاد - كما يقول ديفيد هارفي (David Harvy, 1978) - أصبح شيئًا شائعًا اليوم؛ حيث إنه يتكرر عشرات الآلاف من المرات كل ساعة في كل أنحاء العالم المتحضر.

سينيكا - الفيلسوف والسياسي والكاتب الدرامي الساخر - (عاش بين 4 قبل الميلاد إلى 65 بعد الميلاد) اهتم اهتمامًا كبيرًا بأساليب الكتابة.

«إن الصبيان كانوا يتعلمون طبقًا لنموذج كتابي؛ حيث كانت تمسك أصابعهم ثم تسحب باليد الأخرى الممسكة بها لتخط على النموذج المعد مسبقًا (David Harvy, 1978, 69). على كل حال، لم يكن أسلوب الكتابة هو الخبرة الوحيدة لوسيلة الاتصال هذه. فالحالة الاجتماعية كانت مصاحبة للكتابة لدى الإغريق والرومان، وكانت دافعًا للتعلم. وعلى سبيل المثال، كان لدى هيرودوت الثري في القرن الثاني الميلادي ولد واجه صعوبة في القراءة والكتابة، وعندما لم يستطع الفتى تعلم الأبجدية، راودت هيرودوت فكرة أن يأتي لابنه بأربعة وعشرين صبيًّا من سنه، وأسماهم بحروف الأبجدية؛ حتى يستطيع ابنه تعلم الحروف عن طريق معرفة أسماء أقرانه (David Harvy, 1978, 75).

إن ظهور الحروف الأبجدية – وبصفة خاصة الأبجدية الإغريقية – كان بمثابة ثورة، كما يقول ديفيد هارفي (David Harvy, 1978)؛ فقد أضافت الحروف الإغريقية – كلغة – الحروف المتحركة، وجعلتها وثيقة الصلة بالأصوات، على عكس الأبجدية السامية الأقرب للسكون؛ لاعتمادها على الحروف الساكنة.

عندما أصبح الإغريق شعبًا متعلمًا أصبح فن الخطابة يطغى على مجتمع الكتابة، فثقافة الشفاهية تحولت ولم يتم إحلالها بالكتابة. فالخطابة هي فن مخاطبة الجماهير من أجل إقناعهم، كما أن كلمة (rhetor) اليونانية يرجع أصلها إلى كلمة (orator أي: خطيب باللغة الإنجليزية، وهي تحمل المعنى نفسه في اللغة اللاتينية، وكلاهما يعني متحدث عام (public speaker). يقول أونج (Ong, 1988): إن البلاغة تحتوي على الكثير من الإحساس الشفهي القديم في التفكير والتعبير المعارض أو العدائي. والخطيب يتحدث عادة – كما كان يرى الإغريق والرومان – أمام معارضين أو أعداء حقيقيين أو افتراضيين. ويرى أرسطو أن هناك ثلاثة أشكال رئيسة للبلاغة: عندما تعتمد البلاغة على الأخلاقيات ومصداقية المتحدث ، والبلاغة التي تعتمد على مخاطبة الجمهور بالمنطق والعقل، وأخيرًا البلاغة التي تستند إلى مخاطبة الجمهور بالمشاعر.

وبذلك تكون تكنولوجية الكلمة – والتي هي نتاج الكتابة – أول ثورة كبيرة في الاتصال. ومن ثم سوف يكون الخطأ الجسيم – كما يقول أونج (Ong, 1988) – أن نفكر في وسيلة الاتصال على أنها صندوق يحول وحدات المعلومات إلى صندوق آخر (والصندوق هنا يقصد به العقل البشري).

إن الاتصال الذي يقع بين البشر – بكافة أشكاله – يختلف في نموذج «الوسيلة»؛ حيث إنه يتطلب في الأساس رد فعل لكي يحدث الاتصال. في نموذج الوسيلة تنتقل الرسالة من المرسل إلى المستقبل. وفي الاتصال البشري الحقيقي لا يجوز أن يكون المرسل في مركز المرسل فقط، بل يجب أن يكون أيضًا في مركز المستقبل قبل أن يرسل أي شيء (Ong, 1988, 176).

بالطبع هناك جانب مادي لأي وسيلة اتصال، سواء أكان بالكلام أو الكتابة. ففن الكتابة كان يتطلب أسلوبًا وتسجيلًا. وقد وجد المصريون والصينيون والهند والإغريق والرومان، وآخرون – أن الكتابة سهلت حفظ سجلاتهم للأجيال التالية، وهي سمة مميزة في عيون الطغاة والملوك والقساوسة.

الكتب عند المصريين القدماء والرومان والإغريق:

كانت مهنة الأدب لدى الإغريق والرومان تمارس لذاتها، ولم يكن للمال أي اعتبار، وكان الأدباء يسعدون إذا لاقت كتاباتهم الثناء من أقرانهم.

ولم تخرج ظاهرة الكتابة بفرص تحقق الربح إلى الوجود إلا في العصر الحديث ومنذ حدوث الثورة الصناعية، حيث إنه حينما كان يسعى المؤلف في العصور الإغريقية والرومانية لإظهار عمله (نشره) كان يدعو أصدقاءه ويقرأ عليهم الكتاب، وبذلك صارت القراءة بصوت عال في ذلك الوقت محاضرة عامة، وقد كان الجمهور الروماني قاسيًا في حكمه على المؤلفين.

وإذا أحب شخص ما عمل أحد المؤلفين كان ينسخه، وهذه هي الطريقة التي كان من خلالها يتم تمرير الكتاب وقراءته، أما الأغنياء فكانوا يشترون العبيد ويكلفونهم فقط بنسخ الكتب ووضعها في مكتباتهم. أيضًا، كان الأثينيون والرومان يوظفون العبيد لنسخ الكتب، أما المؤلفون فلم يكن لهم يد في هذا الإجراء، ولم يكن حق التأليف معروفًا لدى الإغريق والرومان. ولم يكن هناك شيء يمكن أن يوقف أي شخص عن نسخ عمل شخص آخر وبيعه بغرض تحقيق الربح (Raulings, 1951, 16- 36). وبذلك تم تجميع مجموعات من الكتب في المكتبات عند المصريين القدماء والإغريق والرومان، على الرغم من أنه لم يكن واضحًا ما إذا كانت تلك المكتبات موجودة في أرشيف – حيث أماكن حفظ المخطوطات – أم معروضة للاستخدام العام، وكان ديودوس سيكولاس هو المؤرخ الوحيد الذي تحدث

عن مكتبة لدى المصريين القدماء، حيث ذكر أن المكتبة أسسها ملك مصر الملقب باسم عثماندیز.

وقال إن مدخل المكتبة نقش عليه: «قصر شفاء الروح»، أو «بلسم الروح»، أو «غذاء العقل». وقد تعرف علماء المصريات على خريطة المكتبة من خلال عثورهم على قاعة في القصر الكبير لمعبد رمسيس الثاني.

وجدير بالذكر أن البابليين والآشوريين كان لهم أيضًا مكتبات، وكان للآشوريين خطوط خاصة بهم، ويرجع الفضل في تأسيس أول مكتبة عامة في أثينا إلى الطاغية بيزانتراتوس (537– 527) قبل الميلاد. وكانت مكتبة الإسكندرية التي أسسسها الإسكندر الأكبر هي الأكبر والأشهر، حيث أسسها في مدينة الإسكندرية في مصر، وكانت الإسكندرية في ذلك الوقت مدينة إغريقية، وجدير بالذكر أن أول مكتبة أنشئت في ذلك الوقت أسسسها سوت البطالمي، وهو حاكم كان يتمتع بذوق أدبي، وعاش قبل الميلاد بثلاثمائة عام، وقد عين ناسخين لنسخ المخطوطات ووضعها في المكتبة. ويقال إنه في فترة حكم يورجيتس البطالمي، تم نقل كل الكتب التي قدمت لمصر إلى المكتبة؛ من أجل نسخها، وبعدها يتم إعادة النسخ إلى أصحابها الذين لم تؤخذ مشورتهم في الاعتبار (Raulings, 1951).

ومعلوم أن الرومان حرقوا المكتبة حينما حطموا الإسكندرية، ومع ذلك ذكر العديد من العلماء أن عددًا كبيرًا من الكتب بقيت منذ الغزو الشرقي Saracen invasion في 638 قبل الميلاد. ولم تكن المكتبات في ذلك الوقت جزءًا من ثقافة الطباعة، بل كانت مستودعات لأعمال من نتاج ثقافة النسخ؛ فقد عمل الآلاف من الناسخين في إنتاج الكتب، على الرغم من صعوبة عمليات الحفظ في ذلك الحين، وكانت عملية إعادة النسخ تحتاج إلى عمالة كثيفة ودرجة عالية من المهارة، وعاشت تكنولوجيا الكتاب بهذه الطريقة حتى عام 1400، حيث تحولت ثقافة النسخ إلى ثقافة الطباعة. فمع ظهور الطباعة تغيرت عملية حفظ السجلات والمعرفة، وعملية توزيعها اجتماعيًّا تغيرًا جذريًّا.

ومع ذلك لا تزال عملية حفظ النصوص القديمة مشكلة من المشكلات المعاصرة. فعلى سبيل المثال، تعد المكتبة القومية في الصين أكبر مكتبة هناك؛ بما تحتويه من مخطوطات تتعدى مليون مخطوطة نادرة، والتي ترجع أولى مجموعاتها إلى المخطوطات الملكية في 417 ميلادية.

وقد اعتادت المكتبة أن تفتح نوافذها لتهوية الكتب، ولكن التلوث صار مشكلة ذات تأثير كبير، بالإضافة إلى أن الكتب تعرضت لحوادث عدة. فقد انفجرت أنبوبة المياة الساخنة في قصر ثقافة بكين للثقافة الشعبية، وأفسدت مجموعة كاملة من الوثائق البوذية (دازنج جينج)، التي اشتملت على 1675 مستندًا، و7240 مجلدًا. كما أتلف الماء أيضًا أكثر من 200000 مجلد من الأعمال النادرة، من 56 من المجموعات العرقية المختلفة. وصار الحفاظ على هذه المخطوطات – رغم أنه باهظ التكلفة – من الأولويات لدى الصين؛ فالمكتبة تخطط المعرفة والفنون والحكمة الروحية واللغة، بالإضافة إلى أنها تمدنا بالتواصل والتماسك والشرعية، وتمدنا بحس التاريخ.

إن الحفاظ على النصوص القديمة قد يكون صعبًا، كما أن وسائل الإعلام الرقمية تواجه المشكلة نفسا؛ حيث إن الوسائط الرقمية الحديثة لا تعيش مئات السنين؛ لأن الماكينات التي تقرأ هذه الوسائط المختلفة تتغير بتغير الزمن، ومن ثم تبقى المواد المنقولة عليها غير مقروءة أو صعب الوصول إليها.

المطبعة:

لقد شعرت إليزابيث إيزينشتاين بالصدمة في الستينيات من القرن الماضي، عندما فكرت في تأثير المطبعة على المجتمع. قالت إنه ما من أحد بحث – بشكل جدي – في التبعات الاجتماعية الكاملة للتحول من ثقافة النسخ إلى ثقافة الطباعة بعد ظهور المطبعة في العام 1400م. وسألت كيف غير اختراع المطبعة سبل الاتصال؟ وتوصلت إلى نتيجة – جاءت في مجلد عن تاريخ ثورة الطباعة – أن الطباعة مذهلة. ووجدت إيزينشتاين أن المطبعة أحدثت أكبر تحول راديكالي في تاريخ الحياة الفكرية في تاريخ الحضارة الغربية. وأضافت أن تأثير المطبعة كان ملموسًا في العاجل والآجل في كافة أشكال حياة الإنسان.

.(Eisenstein, 1983)

ومن المثير للجدل اعتقاد أيزينشتاين أن العديد من المؤرخين تجاهلوا أهمية المطبعة كوسيط للتغير الاجتماعي في أوربا. وإذا بحثنا في العمل الأصلي لفيبفر ومارتن (Febvire and Martin) – والذي نشر قبل مؤلف إيزينشتاين عام (1984)، والذي استشهدت به في مؤلفها – نجد أنه يحتوي على أفكار غير ناضجة قد استقتها منه.

قد تكون إيزينشتاين محقة في إشارتها بقلة التقدير في المراجع التاريخية لدور الطباعة باعتبارها ثورة. وأرجعت هذا الأمر إلى المشاعر الإنسانية البسيطة. لماذا يكون لماكينة بسيطة – المطبعة – تأثير ثوري على كل الثقافة الإنسانية، وما تبعها من إحداث نهضة وتقدم الفكر العلمي؟

Figure 2.2 The spread of printing
Source: Adapted from Febvre and Martin (1984).

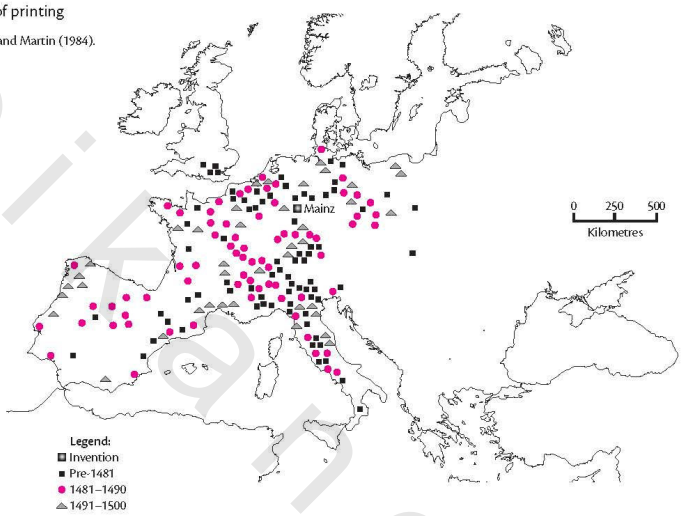

استخلصت إيزينشتاين (1983) العديد من المؤثرات التي حدثت نتيجة ظهور المطبعة، تتلخص في الآتي:

1- ظهور المزيد من الكتب وتراجع عدد ساعات العمل المطلوبة لإنتاج الكتب. ففي السابق كان القساوسة والناسخون يقضون الساعات في الكتابة على الجلد؛ لإنتاج نسخ من الكتاب المقدس والأعمال الأخرى. وكانت تحفظ هذه الجلود والكتب في حجرات خاصة في الأديرة. فقد أتاحت المطبعة نسخ الكتب على الورق وتوزيعها خارج الأديرة.

2- أمكن إعادة طبع النصوص والصور بأعداد هائلة. ففي السابق كانت ثقافة النسخ لا تسمح إلا بإنتاج نسخ فردية، مما كان ينتج عنه تنوع في الشكل والاستهجاء. أما الطباعة فقد أتاحت في المناطق الجغرافية المختلفة الاطلاع على الأفكار نفسها، ومشاهدة الصور نفسها،

سواء أكانت خرائط أو رسومات أو صور، وصارت عملية توحيد اللغة والنحو والهجاء أمرًا ممكنًا.

3- أتاحت وظائف جديدة لمشغلي الماكينات والتحرير والترجمة والتسويق والترويج للمؤلفين؛ مما أدى إلى ظهور نماذج جديدة للاتصال؛ من أجل التعامل مع اقتصاديات صناعة الطباعة.

4- إن صناعة الكتاب تنتعش حينما يصبح المؤلفون نجومًا في المجتمع، وحينما يوضع في الاعتبار حقوق الملكية الفكرية. فقد ظهرت أفكار بخصوص اهتمام المجتمع بحقوق ملكية وتوزيع المعرفة، من خلال المكتبات العامة وحقوق الأفراد في المعرفة؛ باعتبارها واحدة من حقوق الفرد. وكما رأينا في السابق - في مصر واليونان وروما - لم تكن توجد فكرة حقوق التأليف، بالإضافة إلى اختلاف الأفكار فيما يتعلق بالمكتبات.

5- توافر عدد هائل من النصوص في موضوعات مختلفة باللغات المحلية، جنبًا إلى جنب مع النتائج والخرائط. في الماضي كانت اللغة اللاتينية هي لغة الكتابة، ومع ظهور الطباعة، أصبح من اليسير على الناس أن يقرءوا التوراة بلغتهم.

وقد كان لذلك تأثير كبير على احتكار الكنيسة الكاثوليكية للمعرفة، وجعل السياسيين البروتستانت يربطون النماذج المحلية للعقيدة البروتستانتية بالنحو واللغة.

كان التاج الملكي في إنجلترا يضع صك الموافقة، ليس فقط على الكتاب المقدس المطبوع باللغة المحلية، وكتاب الصلوات (Book of common prayers)، ولكن أيضًا على النحو والحروف (الأبناط) التي مهدت الطريق للعامة كي يقرءوا، فقد كان التعليم والدين يرتديان الثياب نفسها في الطباعة باللغة المحلية.

وقد يكون من غير الدقيق أن نقول إن البروتستانت أحبوا المعرفة وحرية الصحافة، وأن الكنيسة الكاثوليكية لم تفعل. لقد استخدم الكاثوليك الطباعة باللغة المحلية. ولكن الكنيسة الكاثوليكية كانت قلقة فيما يتعلق بالنصوص البدعية أو المنحرفة عن الدين؛ مما جعلها تضع قائمة بالكتب المحظورة. ولقد ازداد طلب العامة للنسخ المطبوعة بلغتهم المحلية، دون النظر إلى الاتجاهات السياسية أو الدينية. وعلى كل حال لقد كره البروتستانت النقد بالقدر نفسه الذي كرهه الكهنوت الكاثوليكي.

6- ازدياد الأعمال في مختلف المجالات ساعد القراء على إدراك اختلاف الأفكار والمقارنة بينها؛ مما أدى إلى إفساح المجال لأفكار واكتشافات جديدة. وفي غضون ثلاثة أعوام فقط بين 1517- 1520، طبعت 300000 نسخة من 30 مؤلف للمصلح البروتستانتي مارتن لوثر كينج. واستطاعت العديد من المطابع الإصلاحية أن تدور حتى عندما كانت الكنيسة الكاثوليكية تحظر طباعة كتب بعينها، أو إصرارها على الحصول على موافقة مسبقة من الكنيسة، وقد استطاعت المطبعة - مثلما فعل الإنترنت - إتاحة الفرصة لنشر مصادر بديلة بشكل سريع للمعرفة، بما في ذلك الأفكار الراديكالية أو الثورية.

7- أدت القدرة العالية على إعادة إنتاج النصوص إلى الحفاظ على المعرفة.

ويعد توماس جيفرسن نموذجًا لذلك، حيث قال:

لقد لاحظت في مستهل حياتي البحثية - عندما كنت باحثًا في قوانين فيرجينيا - أن الكثير من تلك القوانين قد فقدت بالفعل، والمزيد كان على وشك الفقدان، حيث كانت توجد فيها نسخ وحيدة لدى بعض الأفراد الذين كانوا يتمتعون بالحرص الشديد، والذين بوفاتهم كانت ستلقى في سلال المهملات. لذلك كرست نفسي لجمع كل ما كان متوفرًا حينئذ، وفي عملية البحث عن تلك البقايا لم آلُ جهدًا ولم أبخل بالوقت أو المال، ولكن برز سؤال عن الو سيلة، ما هي الوسيلة الأكثر فاعلية لحفظ هذه البقايا من ضياعها في المستقبل؟ فكل الحرص الذي يمكنني اتخاذه لن يحفظها بعيدًا عن الديدان، ولا عوامل التعرية الطبيعية التي تؤثر على الورق، ولا من النيران التي يمكن أن تلتهمها، ولا من الفقدان عند النقل لأي غرض من الأغراض العامة. وقد أثبتت تجاربنا أنه لا يمكن الاحتفاظ بنسخة أو عدد قليل منها في الأماكن العامة لمدة طويلة من الزمن. فالخراب الذي تخلفه النيران ووحشية الأعداء لعبت الدور الرئيس في الخسارة الفادحة التي نعاني منها الآن. فكم من الأعمال الأثرية الثمينة فقدت لأنها كانت مسجلة في مجلدات فقط؟ وهل وقعت أي خسارة منذ أن ظهر فن الطباعة وأنتجت العديد من النسخ وتم نشرها؟!

يقودنا هذا إلى الوسيلة الوحيدة لحفظ ما تبقى من قوانينا موضوع هذا الحديث، وهو طباعة العديد من النسخ (cited in Eeisenstein, 1983, 115- 116).

obeikandi.com

إن الحفاظ والهيمنة على المعرفة أمر مهم في كل المجتمعات الإنسانية، سواء أكانت تعتمد على ثقافة الشفاهية أو النسخ أو الطباعة. ويرى (جيفرسن) أن المعرفة يمكن حفظها بشكل أفضل من خلال الطباعة؛ حيث إن القدرة على إعادة إنتاج (أو نسخ) النصوص بكم كبير، يقلل من مخاطرة فقدان الأعمال القيمة. وقد تزايد الاهتمام الشخصي بالحفظ، وجمع مجموعات الكتب بشكل ملحوظ في القرون الأولى لظهور الطباعة.

من هؤلاء الناس الذين أسسوا مكتبة خاصة؟

من بين الـ 377 مكتبة التي وجدت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والتي تحتفظ بكتالوجات لها، وجد أن 105 مكتبة امتلكها رجال الكنيسة (53 لرجال كهنوت، و18 لمدرسين وطلبة جامعيين، و35 للكهنة)، بالإضافة إلى 126 امتلكها محامون، منهم 25 كانوا نوابًا في البرلمان، أو في محكمة الاستئناف، و6 لمسئولين في الحكومة، و45 لمحامين في المحاكم العليا، و10 لنواب عموم، و15 لمثقفين.

جدير بالذكر أن الكتب الدينية ظلت مسيطرة على عملية النشر فترة ظهور المطبعة، وبدأت الأعمال الاحترافية في الازدياد ببطء خارج نطاق الكنيسة.

.(Febvre and Martin, 1984, 324)

وقد أبدى المحامون وأصحاب المطابع أيضًا اهتمامهم بتوحيد اللغات الوطنية والمحلية التي كانوا يستخدمونها في الطباعة. فقد بدأت اللغات المنطوقة للأمم والثقافات تتخذ أساليب موحدة، بما في ذلك حروف الكتابة (Febvre and Martin, 1984, 324).

وترى إيزينشتاين أن توحيد وإصدار أعمال على نطاق واسع – مما يؤدي إلى حفظ وسرعة نشر المعرفة – هما العنصر الأساسي في التغير الاجتماعي الذي طرأ على المجتمع الأوربي إثر ظهور المطبعة. وتقول إيزنشتاين إن الطباعة كانت إحدى القوى التي أفسحت الطريق للتغيير، وإن كانت تبدو في بعض الأحيان، وكأنها تقول إنها – وخطأ ما تقول – الوسيط الوحيد للتغير، والذي قاد إلى الإصلاح وظهور العلم الحديث. إن فكرة التكنولوجيا تؤدي في كل الأوقات إلى التغير الاجتماعي والثقافي، والذي هو شكل من أشكال التحدي التكنولوجي.

وفي كل الأحوال، فإن ما سلف ذكره كان إرهاصًا للثورة الصناعية التي تلت ذلك، كما أنه توجد كثير من عناصر ثورة الطباعة في ثورات الكمبيوتر. وشبكات البث والكمبيوتر، مثلها مثل الطباعة، تزيد من سرعة نشر المعرفة، وإلى حد ما تقود إلى تفعيل ديمقراطية التوزيع الاجتماعي للمعرفة، فهناك توترات متشابهة تلازم كل وسيلة اتصال جديدة. فعند ظهور الطباعة فرض الملوك والأمراء ورجال الدين لوائح تنظيمية للسيطرة، وقد استمر التوتر في القرن الحادي والعشرين بين الإعلام - كوسيلة تتيح الحصول على المعرفة - والقوى الاجتماعية التي تريد السيطرة على المعرفة.

من المهم أن نتذكر أن التعلم والكتاب لا يزال أمرًا مهمًّا. فالتعلم لم يكن في السابق على هذا القدر من الأهمية. وقد قررت اليونسكو في عام 1948 أن التعلم هدف يجب السعي إلى تحقيقه، من خلال حملات تمويل العالم الثالث. وقد لاقت بعض هذه الحملات نجاحًا. فعلى سبيل المثال، اتضح للجميع أن تعليم المرأة هو السبيل للإسراع في تحقيق تغيير اجتماعي، ومن ثم كانت المساواة في الجنس بين الرجل والمرأة، ولعبت حملات محو الأمية دورًا حيويًّا في قارتي أفريقيا وآسيا. بالإضافة إلى ذلك، أخذت عملية محو الأمية أهمية كبرى كلما خطا العالم خطوات سريعة في اتجاه مستقبل الكمبيوتر والمستقبل الرقمي. وفكرة الأبجدية يمكن أن تكتسب أيضًا شكلاً سياسيًّا بشكل كبير، ولنأخذ - على سبيل المثال - دولة أذربيجان، وهي بلد صغير وغني بالبترول تقع على بحر البلطيق، والتي كانت إحدى دول الاتحاد السوفيتي. حصلت أذربيجان على استقلالها في عام 1990 وقررت أن تسير على نهج مصطفى كمال أتاتورك، وتصلح من نظام كتابتها، وتحولت من الكتابة السوفيتية إلى الكتابة بالحروف الرومانية حتى تتواصل بلغة ترتبط باللغة التركية والعربية التي سادت في بلدهم المسلم. وهكذا يتضح أن التعلم مع الكتاب لا يزال مهمًّا.

الطباعة والناس:

حتى الآن ليس لدينا بيانات دقيقة عن عدد القراء حتى نهاية 1800م، بما في ذلك الصين وكوريا وإنجلترا وألمانيا والهند أو أي بلد آخر، ولكننا نعلم أنه كان هناك طلب كبير للحصول على الأخبار. وبحلول عام 1785 كان هناك 124 حرف طباعة في لندن، و316 بحلول عام 1824، وخمسمائة حرف في منتصف 1800. وقد أخرجت المطابع الخشبية مائة شكل، أما المطابع الحديدية فقد أخرجت ضعف هذا العدد. وأنتجت المطابع التي تعمل

بالطاقة 12000 ورقة لمجلة التايمز في ساعة. وبين عامي 1801 و1831 – حينما تراجع إنتاج الصحف بسبب فرض ضرائب ثقيلة على الصحف – وصل عدد النسخ المعتمدة رسميًّا إلى أكثر من ثلاثة أضعاف، حيث زاد من 16085 إلى 54769 في السنة.

.(James, 1976, 17)

وعندما تضاعف عدد سكان إنجلترا ما بين عامي 1780– 1830 من 7 إلى 14 مليون نسمة، زاد عدد القراء هناك إلى خمسة أضعاف، من 1،5 مليون إلى ما بين سبعة وثمانية مليون قارئ. في عام 1832 ذكرت الجمعية المسيحية للدعوة للمعرفة، أن شعب إنجلترا أصبح للمرة الأولى شعبًا قارئًا، مكتسبًا أذواق وعادات لم تعرفها الأجيال السابقة، متأثرًا بشكل خاص بالطباعة (James, 1976, 17).

ولكن ماذا كانت «المطبعة»؟ كانت المطبعة تشترى مقابل 30 جنيهًا إسترلينيًّا. وقبل عام 1850 كان 20٪ فقط من أصحاب المطابع يوظفون أكثر من ثلاثة عمال، كما أنهم كانوا يتاجرون أيضًا في الأدوية وسلاكة الأسنان وعلب الفضة والمكتبات المتداولة، والتي كانت تتكون من ملصقات ونشرات ودوريات إخبارية، وكانت تعلق وتقرأ في الشوارع.

لم تكن المطابع تنشأ في مبان مخصصة لهذ الغرض؛ فقد كان أصحاب المطابع يضعونها في أماكن داخل المحلات الخالية، أو حجرات داخل مبان يتم تقويتها إذا لزم الأمر؛ لكي تتحمل أوزان الماكينات، وبالتالي كانت المطابع ملاصقة لأنشطة أخرى، وأحيانًا بالقرب من أعمال ربات البيوت. حتى إنه عندما جاء العسكر لأخذ مطبعة ريتشارد كارلايل الراديكالي في عام 1819 – تسببوا في إزعاج شديد للسيدة كارلايل التي كانت تؤدي عملها في الحجرة العلوية (James, 1976).

جدير بالذكر أنه لم يقتصر التأثير على المطابع التي تعمل بالبخار والطاقة، بل أدت المطابع اليدوية أيضًا إلى زيادة هائلة في النشر، فالحروف الكبيرة أتاحت إنتاج ملصقات ذات أحجام كبيرة. وكان يطلق على تلك الملصقات والنشرات «المكتبات الدورية للفقراء»، أو «مجلات الحائط» – وكان ذلك بمثابة مدونات الشارع. وكان الناس يعلقون أخبارهم وتعليقاتهم على الحوائط، وينتظرون التعليق عليها. كما كانت المكتبات الدورية تعد أيضًا وسيلة لتعلم القراءة، وقد لعبت الملصقات والنشرات دورًا محوريًّا في كل الحركات الاجتماعية والسياسية

والدينية في ذلك الوقت، فقد كان يتم إنتاجها في بعض الأحيان خلال ساعات من الإنتاج الأول ليكون السؤال أو الإجابة عنه. ويقول ج. دي. بيرن: «كانت الحوائط تعد ميدانًا رائعًا للحرب بين المتجادلين حتى موت أحد العقيدتين المتنافستين» (James, 1976).

وأي شخص لديه دراية بالمدن الصينية سوف يتذكر الصحف التي كان يتم تبادلها، بتثبيتها على لوحات الإعلانات في المجمعات السكنية والأماكن العادية، كما يمكنه أن يتذكر الملصقات بالحروف الكبيرة التي كانت تثير القلق في أواخر الستينيات والسبعينيات. فالأخيرة حلت المدونات محلها، إلا أن الارتباط بين قراءة الأخبار وأماكن الدراسة والعمل والسكن لا يزال قائمًا.

لقد احتفل أصحاب المطابع في كل أنحاء بريطانيا بالإصلاحات التي أتاحت بيئة طباعة أكثر انفتاحًا.

Figure 2.3 Long song seller

كانت السلطات الثلاثة في البرلمان الإنجليزي تتمثل في طبقة النبلاء ورجال الدين (مجلس اللوردات) ومجلس العموم. لم تأت المطبعة عند دخولها إنجلترا على يد وليام كاستون عام 1476 بشكل تلقائي بحرية الصحافة، أو بالسلطة الرابعة بشكل تلقائي. فانتشار المطابع في إنجلترا تراجع؛ بسبب القيود الحديدية التي فرضت على أصحاب المطابع والمحررين.

ففي عام 1586 أصدرت غرفة النجوم «star chamber» أحكامًا بالإعدام على أصحاب مطابع أساءوا لأشخاص في السلطة. وعلى سبيل المثال، ألقي القبض على وليام كارتر، وتم تعذيبه في عام 1580، ثم نفذ فيه حكم الإعدام شنقًا في عام 1584؛ لإقدامه على طباعة نشرات عن العقيدة الكاثوليكية. بعد ثلاثمائة عام لم تعد تطبق هذه العقوبات على توجيه نقد أو السخرية السياسية من الحكومة. إن الذي حدث بين هذين التاريخين هو التوسع في وسائل نقل المعرفة للناس، بدءًا من طباعة النشرات البدائية التي كانت تستخدم في الشوارع، والتي كان يكتبها أصحابها من الصحفيين الأوائل، وصولًا إلى المكتبات الدوارة الخاصة بالفقراء (Emery, 1969).

أشادت الثورتان الفرنسية والأمريكية بظهور القراءة على المستوى الجماهيري. فقد قرأت 40000 عائلة أمريكية صحفًا ثورية. وقد علم الكثير من الأمريكيين عن إعلان الاستقلال من خلال جريدة بنسلفانيا إيفننج بوست (Pensylvania Evening Post) في 6 يوليو 1776 جنبًا بالإضافة إلى الصحف الأخرى التي تبعتها. كانت صحيفة كونيكتكت كورانت (Conecticat conrant) – وهي واحدة من أفضل الصحف طباعة في ذلك الوقت – توزع 8000 من خلال الاشتراكات في عام 1781، وهو الأمر المدهش في ذلك الوقت، والذي لم تستطع تحقيقه أي صحيفة من مثيلاتها البريطانية (Emery, 1969). وصاحبت الإعلانات الأخبار، وكان دخل الإعلانات من الصحف اليومية والمجلات 39 مليون دولار أمريكي في 1880، ووصل إلى 200 مليون دولار بحلول عام 1910 (Emery, 1969).

ولكن ليس أي شيء يعترف به كصحيفة؛ حيث يرى إمري (1969) أن الصحيفة الحديثة لها خصائص عدة في عصر القراءة الجماهيرية، فالصحيفة الحقيقية:

- يجب أن تصدر مرة واحدة على الأقل أسبوعيًّا.
- يجب أن تصدر مطبوعة ميكانيكيًّا (لتمييزها عن النشرات المكتوبة يدويًّا).
- يجب أن تتوفر للجميع مقابل ثمن، بغض النظر عن الطبقة أو الاهتمامات الخاصة.
- يجب أن تحتوي على مضمون يهم الصالح العام؛ للتفرقة بين المطبوعات الدينية والتجارية.
- يجب أن تخاطب المواطن العادي.

- يجب أن تكون محدثة في ضوء التطور التكنولوجي.

- يجب أن تتمتع بالاستقرار، عكس المطبوعات التي تصدر تحت ستار ظلام الليل (Emery, 1969).

إن وصول الصحف لكل فرد - كما يقول إيمري (1969) - يعد أمرًا ضروريًّا لإدارة السلطة الرابعة، كما أن أخلاقيات تحرير الصحف تعادل الأهمية نفسها. وقد جسد جوزيف بوليترز تلك الأخلاقيات بقوله: كل عدد من الصحيفة يعد فرصة وواجبًا لقول شيء شجاع وحقيقي ما؛ من أجل الارتقاء على التناول الوسطي والتقليدي، ولقول شيء يستدعي احترام ذكاء وعلم واستقلال المجتمع، والاستعلاء على الخوف من التحزب والخوف من التحيز الجماهيري. (Pulitzer cited in Emery, 1969, 369)

وقد شهدت مهنة بوليترز مولد الصحف والصحافة الحديثة كمهنة في ذروة تطورها. فقد اشترى جريدة "العالم" في عام (1883) مقابل 346000 دولار، وبعد 10 أعوام كان يعمل بها 1300 عامل محققة ربحًا سنويًّا وصل إلى المليون دولار.

إن ظهور الطباعة والأخبار في الديمقراطية الصناعية الحديثة، هو نتاج الحركات الشعبية والمصالح التجارية التي استعانت بالاختراعات في مجال الإعلام الجماهيري المطبوع. وقد أتت الصحافة الحديثة بتكنولوجيا الإنتاج الطباعي الجماهيري، كما أتاحت فرصة ظهور مهنة الصحفي، وبالطبع الإعلان.

الإمبراطورية والتلغراف والأخبار:

ساعدت المطبعة على الإنتاج الجماهيري للأفكار، وكان التلغراف أول شبكة حديثة تنشر الاتصال عبر مسافات طويلة، وقد ظهر التلغراف بمظهر ابن العم الفقير للراديو والتليفزيون، ولكنه كان البشير لتكنولوجيا البث اللاسلكي وشبكات الكمبيوتر.

في عام 1825 كانت المعلومات تستغرق أربعة شهور حتى تنتقل من كالكتا إلى فالماوث، ولكن هذا الأمر لم يستغرق أكثر من 35 دقيقة بحلول عام 1906. لم يعن هذا فقط وصول الأخبار بشكل مفصل وأسرع من خلال الصحف البريطانية للقراء، ولكن أيضًا ساعد هذا الأمر في تحقيق إستراتيجية إمبريالية كبرى بشكل سريع على مستوى الجيش والأسطول. استطاعت الإدارة أيضًا أن ترى بشكل مباشر ما يجري على صعيد الإدراة في إدارة الاحتلال

الخارجية، أو في حالة التاج الذهبي في إدارتها بالهند، وكما يرى أحد المؤرخين فإن الإمبراطورية البريطانية تم تقويتها من خلال عجينة ورق رخيصة بالقدر نفسه الذي أتاحته السفن الحربية[1].

لم تكن الإمبراطورية البريطانية فقط هي التي اهتمت بالتليجراف. فعلى سبيل المثال امتلكت الإمبراطورية العثمانية في عام 1877 أكبر شبكة تليجراف رقم 8 في العالم، وكانت تغطي سبعة عشر ألف ميل. كان التليجراف ينمو مع شبكة السكة الحديد لدى الإمبراطورية البريطانية، أما في الإمبراطورية العثمانية واليابان والصين فكان التليجراف ينمو وحده بعيدًا عن السكك الحديدية.

أثار منظر السواري (الأعمدة) والأسلاك دهشة وشك رجل الشارع في العصر العثماني، فلم ير الفلاحون أو البدو في حياتهم من قبل شيئًا، مثل الأسلاك التي كانت تمر من خلال قراهم أو فوق خيامهم في الصحراء، ثم مرورها بالجبال، وصولًا إلى مقر السلطان. كانت تلك السواري والأسلاك تبدو في البراري كأنها تجسيد حي لآثار فترة ثقافية جديدة تنطلق في الفضاء، وقدمت - كما هو الحال في الغرب - جهازًا فخمًا للتجربة في إطار اجتماعي وثقافي. ومن المثير للاهتمام أن التليجراف كان تجسيدًا حيًّا للإشارة لوجود وسيلة للشكوى للسلطان أو التحرر. وكان الفلاحون والمتمردون في العصر العثماني يحطمون خطوط التليجراف؛ لجذب الانتباه أو إنزال الدمار. ولم يكن من المدهش أن يهتم الجيش البريطاني - الذي كان يتم إعاقته أو تعطيله من خلال تحطيم خطوط التليجراف في المستعمرات - اهتمامًا كبيرًا بالراديو عند ظهوره؛ نظرًا لأن التليجراف أصبح وسيلة يمكن الوصول إليها، وجعله رمزًا للإمبراطورية المحطمة[2].

أيضًا، كان يتم ربط الإمبراطورية من خلال التليجراف. ففي بداية حرب القرم Grimean war كانت أسرع رسالة تصدر عن (القرم) يمكن أن تصل لندن خلال خمسة أيام. وقد اتحدت بريطانيا وفرنسا مع الإمبراطورية العثمانية ضد القرم في البحر الأسود، وأقامت فرنسا خطًّا بين بوخارست وفارنا. ومدت بريطانيا خطوطًا بحرية بين فارنا

(1) (Chapman, 2000, 67).

(2) Bektas, 2000, 669.

وبالاكلافا في القرم، حيث كان يعسكر الجيش البريطاني. «ومع نهاية شهر أبريل 1855 كانت بالاكلافا على اتصال مع فارنا. فقد تم استقبال الرسائل وبثها عبر الخط الفرنسي الجديد إلى بوخارست، ومن ثم إلى باريس ولندن، وكانت كل العملية تستغرق حوالي خمس ساعات في ذلك الوقت، بما في ذلك ساعتين على الأقل لحمل الرسائل عبر الدانوب بالقارب؛ لأن الكابل الذي كان يمتد تحت مياه النهر لم يكن قد تم مده بعد» (Bektas, 2000, 671).

وفي ذروة التليجراف امتلكت بريطانيا 80٪ من الكابلات البحرية، (Chapman, 2002)، ولم تكن هذه الشبكة العالمية للتليجراف، تعمل في خدمة الجيش أو السلاطين الذين أرادوا السيطرة على إمبرطوريتهم فقط. لقد غذى التليجراف شعوب الإمبراطورية العطشى للحصول على الأخبار.

لأول مرة أصبحت «السياسة العالمية» ممكنة، وقد قادت بريطانيا الطريق، وهو الدور القيادي الذي سهلته ما سمي فيما بعد «الطريق الأحمر»، للاتصال عبر الكابل التليجرافي، الذي ربط كل المقاطعات بلندن. وقد أدى هذا الاستثمار الطموح إلى توافر حجم هائل ومتنوع من المعلومات عن الإمبراطورية البريطانية بشكل غير مسبوق. فقد كان هناك طلب متزايد على الأخبار، يدعمه الاعتقاد العام في دعم تدويل الاستعمار البريطاني جسده، تحت تأثير اليوبيل الماسي لخطاب الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا، وانبهار السوق الجماهيري من قراء الصحف، في عالم كان يقع تحت تأثير متزايد من الاحتكار التجاري للإمبريالية الأوربية.

.(Chapman, 2002, 67)

وقد لخص كل من جيمس كاري (James Carey, 1989) ودانييل هيدريك (Daniel Headrick, 1981) تأثير التليجراف في أنه:

- قلل من التنقل الإنساني والميكانيكي، وأدى إلى سرعة الاتصال.
- أدى إلى نشر المعلومات في كل مكان.
- أدى إلى زيادة حجم المعلومات المتاحة.
- ساعد التصور الإنساني على الشعور بقيمة الوقت، وأتاح للصحف العمل في «الوقت الحقيقي».

- أدى إلى إعادة هيكلة الصحافة.

- غيّر طبيعة اللغة بتجديدها وجعلها مختصرة.

- فصل الأخبار عن التحليل، وبالتالي غيّر أسلوب تفسير البشر لعالمهم، فكلما كان استلام الأخبار أسرع، كلما كانت طبيعة ردود الأفعال متغيرة.

- صار عصب الإمبريالية.

لم يكن من المدهش أن يرى كاسيلز (Castells, 2001) أن التليجراف أحد بشائر المجتمع المتشابك. فقد وفر التليجراف للجمهور والعامة شبكات عالمية، مع التنبؤ بأن تلك الشبكات - لما لها من سرعات عالية بشكل نسبي - سوف تأتي بالأخبار من أكثر المجتمعات بعدًا في العالم.

الراديو:

كما رأينا من السرد التاريخي السابق، فإن تطور الطباعة لم يكن الفرع الوحيد الذي تخصص فيه رجال الأعمال والمخترعون المهرة. لقد صار الاهتمام بالحصول على الأخبار أمرًا في غاية الأهمية، سواء من جانب رجل الشارع الفقير في لندن، أو الكتاب الذين يكتبون للصحافة الراديكالية. وكان هذا الاهتمام يساوي الاهتمام التجاري بتكوين ثروة مالية. وقد قدمت الصحافة الحديثة توازنًا بين الاهتمامات التجارية وجمهور القراء المتعلم المتزايد، الذي يسعى لمعرفة الأحداث. وقد ساعد التليجراف على نقل الأخبار من مصادرها العالمية إلى تلك الصحف.

مثل الإنترنت في عصرنا الحالي، تسبب الراديو في إزعاج أصحاب المصالح التجارية والحكومية؛ لأنه لم يكن منظمًا. أيضًا، مثل الطباعة فقد خلق توترًا بين ديمقراطية الوسيلة والهيمنة. ومثل الإنترنت فقد اعتقد الجميع أنه بإمكانهم استخدامه. وبحلول عام 1910 تغلب عدد مستمعي الراديو على عدد المشتغلين في الأسطول الأمريكي والشبكة اللاسلكية للولايات المتحدة، كما أن معدات الهواة كانت في غالب الأحيان تتفوق على مثيلتها التي يستخدمها المشتغلون التجاريون (Douglas, 1987, 207).

زاد عدد الهواة ومحطات الهواة الذين حصلوا على تراخيص، زيادة هائلة في السنوات التالية لسن تشريع قانون الراديو؛ فقد زاد عدد الهواة المرخص لهم من 322 في عام 1913 إلى 10279 في عام 1916. وما بين عامي 1915 و1916 فقط، منحت السلطة المسئولة 8489 ترخيصًا، بإتاحة محطات الهواة، ووصل إجمالي عدد المشتغلين الهواة الذين حصلوا على تراخيص إلى 8489، وفي نفس الفترة حصل 5202 شغل تجاري وأكثر من 200 محطة شاطئية على تصاريح، ووصل إجمالي عدد المشتغلين التجاريين في 1917 إلى 13581. أما التصاريح التي لم تتم الموافقة عليها لمحطات الاستقبال فتبلغ تقديراتها 150000 محطة.

.(Douglas, 1987, 293)

ونقلًا عن الهواة، قال دوجلاس (Douglas, 1987): إنهم قالوا إن المشتغلين كانوا «يثرثرون عن أي شيء تحت الشمس». فكان من الممكن أن «يسألوا بعضهم البعض عن نتائج لعبتي البيسبول أو كرة القدم، أو يحددوا مواعيد للمقابلة في اليوم التالي، أو يناظروا دروسهم. كما أنهم كانوا يتشاجرون، ثم يعاودون الحديث من خلال الأجهزة اللاسلكية كما لو كانوا صبية صغارًا». وبالتالي كان الراديو في بدايته يقدم لنا نموذجًا للمستقبل كما هو الحال في غرف الدردشة على الإنترنت.

كانت موجات الراديو «الأثير» متاحة للجميع، ولكن كانت تكنولوجيا الراديو في أيدي الشركات (RCA, GE, Westinghouse, AT& T). ومن أجل فرض الهيمنة وإبعاد الهواة عن الموجات والتعامل مع الرسائل – فقد فرضت هذه الشركات التي تملك تكنولوجيا الراديو رسوم تشغيل بملايين الدولارات؛ لإقامة المعدات في أنحاء الولايات المتحدة، ولم يكن هناك سوى الجيش وحده الذي أبدى مخاوفه من اختراق الموجات الهوائية، مع احتمال حدوث فوضى في تقارير الحوادث في البحر أو في أي مكان آخر، بالإضافة إلى الرسائل الكاذبة (Douglas, 1987 316،).

أدت مخاوف الشركات والجيش إلى التدخل التشريعي، الذي حدد أي موجات يمكن تخصيصها للطالبين المنافسين، وبحلول 1922 منحت الحكومة المجال المتميز للشركات التجارية اللا سلكية والجيش.

إن الراديو كان يوفر لكل مواطن فرصة التواصل مع محيطه المحلي والعالمي، علاوة على أنه كان الوسيلة الرئيسة لتقديم الأخبار والمعلومات دون وسطاء وبشكل سريع. حينما غرقت السفينة تايتانك امتلأت موجات الهواة بأخبار حقيقية وغذت بالإشاعات، وجاءت ديمقراطية الوسيلة بالنسبة للشركات والجيش بمثابة صدمة وتهديد للربح والهيمنة على كيفية تطور الاتصال.

وفي أواخر الثلاثينيات كان حوالي 26 مليون أسرة في الولايات المتحدة تمتلك على الأقل جهاز راديو واحد، وكانت تقضي حوالي خمس ساعات يوميًّا في الاستماع للراديو لواحدة من ثلاث شبكات قومية أو إذاعة محلية، وكانت أكثر البرامج اليومية شعبية تذاع في الفترة المسائية، وهي البرامج الكوميدية والمنوعات، ومنها برنامج: «جاك بيني»، وعرض: «إدجر بيرجن»، و«شارلي ماكارثي»، و«بيرنز وآلن»، و«فايبر ماجي ومولي»[1]، وعرض البوب هوب، بالإضافة إلى برامج وعروض أخرى كانت تحظى بالاهتمام في الفترة المسائية. وكان الراديو يتمتع بميزة اجتماعية، حيث أتاح للجماهير دراسة ومعرفة العادات والعواطف والموضة من ثقافات مختلفة.

بدأ المعلنون وأصحاب محطات البث الإذاعي في الثلاثينيات إجراء دراسات بحوث معدلات تفضيل الجمهور. وهذا النوع من الأبحاث كان يشتمل على الاتصال بربات البيوت في وقت استماعهم للراديو؛ لمعرفة ما يستمعون إليه. وبعد التقدم الملحوظ في منهج الدراسة، تم إجراء مسوح على نطاق أوسع، وجاء التحليل الذي أجراه بول لازرزفيلد وباتريشيا كيندال للدراسة المسحية التي أجراها المركز القومي لبحوث الرأي (National opinion research center)، والتي دعمتها الهيئة القومية للبث الإذاعي والتي تم نشرها في عام 1948، كنموذج لظهور منهج بحوث الجمهور بشكل رسمي، باستخدام وسائل العينات الحسابية، والتي أظهرت تفضيلات المستمعين، بالإضافة إلى اتجاهاتهم نحو الإذاعة ودورها في المجتمع.

(1) Th e Jack Benny Program, Th e Edgar Bergen and Charlie McCarthy Show, Burns and Allen, Fibber.

McGee and Molly, Th e Bob Hope Show.

وفي الأيام الأولى لنشأة هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) كان هناك اختلاف في حجم البث، مقارنة بالولايات المتحدة في ذلك الوقت. ففي نوفمبر عام 1923 كانت لندن تبث 3 ساعات، منها 25 دقيقة من الموسيقى كل يوم، مقارنة بساعتين وخمس دقائق، موزعة على كل شيء آخر في الولايات المتحدة (Briggs, 1985, 63).

واستحوذت السيمفونيات وأحيانًا الفرق الموسيقية العسكرية على البث. أما في الولايات المتحدة، فتواجد في الأيام الأولى العديد من «المصنعين المحليين» الذين صنعوا أجهزة الراديو. وقد قرر مكتب البريد الذي يتحمل مسئولية إصدار تصاريح الراديو، منح الترخيص لما يقرب من 160000 جهاز هواة، و80000 جهاز. أما بالنسبة للـ (BBC) فقد كانت تتحكم في أجهزة البث وتراخيص الراديو، وانتهى الأمر بالهيمنة الكاملة للحكومةعلى هذا الجهاز. وكانت هيئة الإذاعة البريطانية الـ (BBC) قد تم تأسيسها بموجب قرار ملكي، أعطي بموجبه للـ ((BBC مهمة «التعليم والترفيه». في البداية اشتمل الأمر على عدم البث في أمور تتعلق بالسياسة والصناعة والدين. وعارض جون ريث مدير الـ BBC) هذا الأمر، وحث الحكومة على السماح بتقديم تقارير عن الأحداث الجارية مع البعد عن الموضوعات المثيرة للجدل.

Table 2.1 The constancy of programme preference (1947 compared with 1945)

	Daytime preferences				Evening preferences	
	Men		Women		Total	
	1945	1947	1945	1947	1945	1947
News broadcasts	65	61	76	71	76	74
Comedy programmes					54	59
Popular and dance music	15	23	35	39	42	49
Talks on public issues	22	19	21	22	40	44
Classical music	12	11	23	20	32	30
Religious broadcasts	19	22	35	41	20	21
Serial dramas	7	6	37	33		
Talks on farming	13	16	12	13		
Homemaking programmes	5	5	44	48		
Livestock and grain reports	14	17	6	10		

Source: Lazarsfeld and Kendall (1948, 21).

مثلت الولايات المتحدة وبريطانيا نظامين مختلفين للبث، فالأولى هيمنت عليها الشركات التجارية والإعلانات، والأخيرة تحكمت فيها هيئة حكومية، دون اللجوء إلى بث إعلانات

أو الحصول على دخل من خلال منح التصاريح. والآن، زال احتكار راديو الـ (BBC في بريطانيا، على الرغم من شهرة الـ BBC) العالمية الآن، علاوة على أن العصر الذهبي للراديو كان عليه أن يفسح الطريق للتليفزيون، على الرغم من أن الإنترنت والتدفق الإذاعي أعادوا إليه عصرًا ذهبيًّا ثانيًا.

السينما والتليفزيون:

ربما تكون أفضل وسيلة للحصول على طريقة استقبال الجمهور للسينما وردود فعلهم، هي السينما المتحركة. وربما من المفيد الذهاب إلى واحدة من أبعد المدن في بداية القرن الواحد والعشرين، وهي مدينة ألباني (Albany) في غرب أستراليا، والتي يبلغ تعداد سكانها الآن 30000 نسمة، وكان تعداد سكانها في منتصف العشرينيات حوالي 2000 نسمة. وعلى الرغم من بعدها عن الحضارة والتمدن وقلة عدد سكانها، إلا أن ألباني كانت مغرمة بالسينما. فقد افتتح هنري لامبرت وزوجته إليزابيث في عام 1925 مسرح ريجينت، وتوضح لنا الصورة التالية – على الرغم من قدمها – الافتتاح، وكيف كانت المناسبة تتمتع بالشكل الرسمي في المدينة.

Figure 2.4 Opening of the Regent Theatre, Albany's first cinema, Western Australia, 1925

كان التقرير الذي نشر عن مسرح ريجينت في ألباني آدفيرتايزر (Albany Advertiser) – وهي الجريدة المحلية للمدينة – مهمًّا في تصوير السينما في وضعها الذهني المؤثر وسياقها العالمي.

إذا عدنا بالذاكرة 29 عامًا – حيث ولدت الصورة المتحركة – سوف يدهش المرء من تطورها وسرعتها الهائلة في تثبيت أقدامها في الأطراف الأربعة للكرة الأرضية. فلم ينتشر أي فن بمثل هذه السرعة، مثلما انتشرت الصورة المتحركة، وقد حققت شهرة هائلة، حتى إن الصناعة المرتبطة بها وصلت – طبقًا لبعض الإحصائيات – إلى المرتبة الثالثة في عالم التجارة في العالم، بعد صناعة الحبوب والفحم. وبذلك صار الفيلم المتحرك الوسيلة الأفضل لعرض القصص الثرية بالحوادث والحركة، مع الوضع في الاعتبار أن الكثير يعتمد على الأسلوب والبيئة المحيطة التي تدور فيها الأحداث أمام الجمهور (Albany Advertiser, 1924).

في عام 1894، وقبل افتتاح مسرح ريجينت في ألباني بما يقرب من 30 عامًا، افتتحت قاعة لعرض الصورة المتحركة (كانيتوسكوب Kinetoscope) في نيويورك، وكانت أول أفلام ومضت فيها من خلال جهاز عرض الكانيتوسكوب، الذي اخترعه «توماس أديسون» ويعمل بالعملة، وكانت تعرض أفلام للملاكمة وراقصات الباليه والدببة، وكانت الماكينة تعمل بشريط واحد 50 قدمًا وأقل من دقيقة. وقد تم اختراع جهاز (بان أوبتيكون Panoptikon) لخدمة عدد أكبر من الجمهور. أما (البروجيكتور) فقد ساعد المسرح الكوميدي في استخدام صورة واحدة متحركة على رأس الإعلانات الحديثة، أو في بداية البرامج التي يتم الإعلان عنها. وجدير بالذكر، أن محلات بيع السيجار ومكاتب الرهان والمطاعم الصغيرة، تحولت إلى قاعات سينما صغيرة، تعرض فيها أفلام «صندوق الدنيا».

وقد اتفقت في عام 1908 أكبر شركات الإنتاج السينمائي في ذلك الوقت (بيوجراف، وإيساناي، وكاليم، ولوجن، وفيليبس، وباثي، وسيليج وفيتا جراف)[1] – على أن تكون

(1) Biograph, Essanay, Kalem, Lubin, Melies, Pathe, Selig and Vitagraph.

وكلاء معتمدة لأديسون في شركة (MPPC)[1]، وكانت تعرف أيضًا باسم شركة اختراع الصورة المتحركة (Trust) أو المؤسسة.

منذ ذلك الحين، دفع منتجو الأفلام أتعاب الترخيص للمؤسسة من أجل شراء الاختراع. وقد ضعف احتكار الشركة بسبب تأسيس شركات مستقلة، وعدم دفع أتعاب للمؤسسة. وفي عام 1914 دخل «وليام فوكس» مجال الإنتاج السينمائي، وذلك قبل عامين من تأسيس أستوديو فرعي تحت اسم: (Box office attraction). وفي السياق نفسه ، كان «دي. دبليو. جريفيت» قد ترك المؤسسة ليعمل لدى ريلانيس- ماجيستيك (Reliance Magestic)، وحقق 115.55 $ من تحويل رواية «توماس ديكسون» الشهيرة «كلينمان»، و"ولادة شعب" عام 1915. عندما كان يعرض الفيلم كان يتم تكليف فرسان بالزي الأبيض للركض ذهابًا وإيابًا في أقرب شارع، والدعاية لكل عرض (Cook, 1985, 5). على الرغم من أن هذا المثال بالذات يمثل ذاكرة مزعجة – أن التكنولوجيا والفن ليسا بالضرورة في جانب السياسة، ولا في جانب الديمقراطية أو الذوق الجيد – إلا أنه مثال مهم للغاية لصناعة السينما في بداياتها الأولى. وقد تنافست إعلانات الشوارع فيما بينها على التوزيع المحلي والمكاسب التي يحققها الموزعون. من هنا نشأت الحاجة إلى شبكة موزعين قومية، ففي 1914 تأسست أول شبكة توزيع قومية، من خلال مؤسسة باراماونت (Paramount Pictures Corporation)، حيث وزعت 104 في السنة (Cook, 1985).

مر النظام المؤسسي في هوليود – من حيث أنظمة الأستوديو والنجوم والشبكة القومية للتوزيع السينمائي – بتغييرات في البناء الهيكلي منذ الثلاثينيات، وبصفة خاصة الدمج الرأسي للمؤسسات الإعلامية (الشركات التي تملك كل أشكال وسائل الإعلام). وانتشرت السينما في كل أنحاء العالم بسرعة، مدعومة بمراكز رئيسة للإنتاج في الصين والمملكة المتحدة؛ احتفاءً بمرور قرون على ظهور الأفلام في القرن الواحد والعشرين، مع ظهور المزيد لإشباع الجوع المرئي لجمهور عالمي يطمح نحو المزيد من الروايات السينمائية. وكان للتليفزيون أيضًا تأثيره

(1)Motion Picture Patents Company.

على حضور الجمهور، كما يوضح لنا الشكل رقم (2. 5)، فبعد ظهور التليفزيون في الخمسينيات تحول الجمهور نحو التليفزيون؛ باعتباره الوسيط السائد.

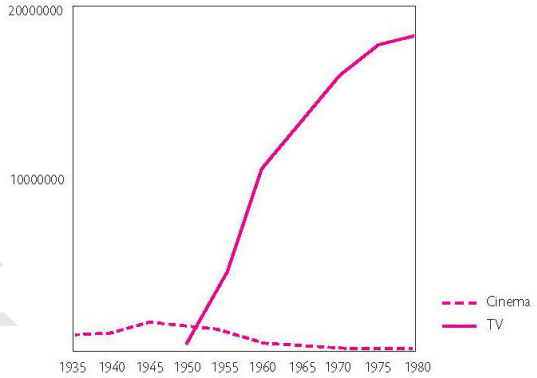

Figure 2.5 Decline of cinema viewing in Britain

Source: Statistics adapted from Briggs (1985).

الشكل (2. 5) هبوط مشاهدة السينما في بريطانيا

المصدر: (Biggs, 1985)

إن تاريخ السينما والتليفزيون ليس فقط تاريخ الإعلانات والجماهير والنجوم والأستوديوهات، ولكن التطور الذي شهدته صناعة الفيلم والتليفزيون، تضمن تجريب أشكال متعددة من الرد، والأساليب التي تم استخدامها في تحرير وعرض الروايات والصور. وهناك أيضًا عالم متكامل من النظريات المتعلقة بالسينما وأهدافها. كما يعد كتاب السينما – الذي ألفه «بام توك» – مصدرًا رائعًا لهؤلاء الذين يسعون للحصول على وسيلة ذكية ومكثفة في هذا الأمر المعقد. فعلى سبيل المثال، تضمن الأسلوب الروائي التقليدي، والذي ظهر في العشرينيات افتراضات تتعلق بالبناء الروائي، مثل: الفصل بين السبب والتأثير ودرجة عالية في وضع النهاية، وبناء عالم روائي تسيطر عليه الواقعية، علاوة على مركزية السرد للشخصيات المحورية من الجانب السيكولوجي (Cook, 1985, 216). ويعني هذا أنه منذ بداية الرواية ونهايتها، يوجد ترتيب عادي للأحداث للمشاهد أو الجمهور، أو الشخصيات التي لديها دوافع، أو الشخصيات التي تساعد على فهم حبكة الرواية في سياق ثقافي أو سيكولوجي: «البداية» و«الوسط» و«النهاية»، ويعني: «السرد المكثف». أما البطل التقليدي فقد يكون الشخصية المحورية التي تقود أفعاله إلى حل عقدة الرواية. فمثلًا: بروس ويليز في رواية «Die Hard» يظهر على أنه بطل حركة يواجه

الإرهابيين، وتضع العناصر السينمائية، مثل التحرير لقطات حركة الشخصية واللقطات التالية. وكلمة Mise en scene تشير إلى الإخراج المسرحي؛ حيث توضع الأشياء في مشهد ما (يتم ترتيبها على المسرح). وعند تطبيق هذا في السينما، فإن هذا يعني أن الكل يظهر في صورة واحدة، بما في ذلك تلك المناظر التي تتداخل مع فنون المسرح، مثل: الخلفية والضوء والملابس وسلوكيات الأفراد (Cook, 1985, 151). إن الأسلوب الذي يضعه المخرج للحدث للتصوير أمام الكاميرا – له تأثير على المشهد، وانعكاساته على الناس. وهناك مشاهد بعينها تتعلق بالسينما ولغة السينما، وهي عبارة عن تقارير لأحداث مرتبة تجري أمام عين المشاهد وحبكة وشخصية وخلفية وتطور روائي وموسيقى ونجوم. وكلمة Film Noir تعد مثالًا على نوعية السينما التي ظهرت في فترة زمنية معينة. إن أي شخص اعتاد الذهاب إلى السينما بشكل منتظم في 1949 – فإنه وقع تحت تأثير الدراما السينمائية المريضة التي كانت سائدة بعد الحرب العالمية الثانية. بدءًا من شهر يناير وحتى ديسمبر في ذلك العام، حيث كان المشاهد يرى ظلالًا عميقة وأياد متعانقة، وبنادق تطلق الأعيرة النارية، وأوغاد يتمتعون بالسادية، وبطلات يتعذبن من أمراض عقلية متأصلة، تراهم يظهرن على الشاشة كالوميض في عرض لاهث للجنس بشكل نرجسي متعمد، وقتل غير أخلاقي (Cook, 1985, 93). أما فن السينما Art Cinema فعادة ما يستخدم في تضاد للحوادث السينمائية الروائية التقليدية، حيث لا توجد أي روابط للاستمرارية.

إن لغة نظرية السينما وممارسة السينما تعكس الدور الإبداعي والمهني لهؤلاء الذين يقفون خلف صناعة السينما والدور الاجتماعي المنوط بها. ونظرية المؤلف تعنى – على سبيل المثال، وبشكل لا يدعو للشك – بدور المؤلف. وقد قدمت الدورية الفرنسية

(ca du Cinema) فكرة: Politique des auteurs، والتي تقول إنه على الرغم من الطبيعة التجارية للسينما، فإن المخرج – مثل أي فنان آخر – كان يعد المؤلف الوحيد للعمل. وصارت هذه الفكرة هي الفكرة الرئيسة على مدار السنين التالية، والتي ترى أن مسار المخرج في عمله وتحديد التاريخ، كانت ضد الأفكار التي شكلت رد فعل المخرج لعصره. وقد يكون للآخرين اعتقاداتهم، ولكننا نقترح أسماء مثل: «ستانلي كوبريك» و«أرسون ويلز» و«زانج يمو»؛ باعتبارهم ثلاثة نماذج كلاسيكية، وبصرف النظر في أننا نحب أفلامهم أم لا – فإنه لا أحد يشك في بصماتهم السينمائية.

إن الحضور للسينما لا يعني فقط مشاهدة فيلم، ولكنه أيضًا خبرة اجتماعية عميقة؛ حيث قالت العالمة «آنيت كون»: إن الذهاب السينما يبني ذكريات للأماكن التي نرتادها لمشاهدة الأفلام والأشخاص الذين شاهدناهم في تلك الأماكن؛ يحدث هذا لأن العمل وكثافة المعلومات التي يقدمها الفيلم تتحد مع خبرة المشاهدة، والذهاب إلى مكان لهذا الغرض، يؤدي إلى بناء ذكرى عميقة ودائمة.

الملخص:

اشتمل ظهور السينما على التجريب مع وجود أشكال روائية مختلفة، بالإضافة إلى الوسائل التي من خلالها تمت معالجة عرض الروايات والصور. هذه الحوارات نشأت من أجل صناعة السينما، سواء عرضت من خلال السينما أو التليفزيون، وقد صار الأخير الوسيلة السائدة في الجزء الأخير من القرن العشرين، ولكنه لم يحل محل السينما بشكل تام.

الكمبيوتر والإعلام الاجتماعي:

«إننا نشهد حركة تطور لشبكة اتصالات عالمية، تتداخل فيها عناصر الصوت والصورة والنصوص الإلكترونية، التي من شأنها أن تمحو الفاصل بين الاتصال الشخصي والاتصال الجماهيري، وبين الاتصال العام والخاص» (New man, 1991, 12).

فالناس الآن يقضون وقتًا أكبر في مشاهدة التليفزيون، ولم تستخدم الحاسبات نظرًا لتغير طبيعة العمالة مع مطلع القرن العشرين، حيث لم تعد هناك حاجة للعمالة الكثيفة لإنتاج محاصيل زراعية لصالح المجتمع ككل. وقد جاء مصطلح: «الطريق السريع للمعلومات» كجزء من تذكرة «بيل كلينتون» للتكنولوجيا المتقدمة في انتخابات الرئاسة الأمريكية في عام 1991، وهي تعكس هذا التغير الاجتماعي الذي جلبه قطاع خدمات المعلومات. وبحلول عام 2007 صارت الكثير من العائلات في البلاد الصناعية عبارة عن «مراكز منزلية للترفيه» مع دخول شاشات كبيرة، وإمكانية الحصول على الاشتراك في التليفزيون المشفر المدفوع مقدمًا، وشبكات الإنترنت اللا سلكية ذات الموجات عالية التردد.

لقد انصب اهتمامنا في هذا الفصل على الخبرة الإنسانية في الإعلام الجديد. فقد رأى المراقبون أن ظهور الإنترنت كان بمثابة صدمة كالزلزال. وقال نيجروبونتي (Negroponte, 1996, 204): إن زلزال الإنترنت كان بمثابة 10.5 بمقياس ريختر، فيما يتعلق بالتغير الاجتماعي. أما كاسيلز فقد رأى أن الإنترنت هو من صنع حياتنا. أما «بيل جيتس» – صاحب الاهتمام المتأصل بالحاسبات والإنترنت – فقد أعلن أن الحاسبات والإنترنت كانا بمثابة صدمة لنا كصدمة اكتشاف الأسلوب العلمي، واكتشاف الطباعة، ودخولنا عصر الصناعة (Gates, 1995, 273).

ومن المشوق أن التليفون كان لدينا على مدار سنوات عديدة، وهو وسيلة اتصال تعمل في اتجاهين، وتسمح بالاتصال بمناطق جغرافية متباعدة. وصار التليفون جزءًا من تشريع الخدمة الشاملة، وهو تشريع يؤكد على المساواة بين الناس في الحصول على ما يتيحه المجتمع من وسائل اتصال وإعلام. وترى الدول الصناعية أن التليفون وسيلة مهمة من الجانبين الاجتماعي والاقتصادي، إلى حد أن ربة المنزل التي لا تستطيع الدخول على الشبكة – قد يتم تقديم إعانة لها للحصول على التكنولوجيا وإجراء مكالمات. فالمستخدمون في بعض المدن الحضرية في بعض البلدان غالبًا ما يتحملون أسعارًا أعلى لمكالماتهم؛ من أجل إعانة المناطق الريفية. كما أن المستخدمين الريفيين الذين يقيمون في مناطق بعيدة عن السنترالات المحلية – غالبًا ما تقدم لهم المساعدة لإقامة البنية الأساسية للاتصال لتوصيلهم بالشبكة. وبناء عليه، فقد تغير التشريع الشامل بعدما صارت شبكات التليفون أرخص، والحصول على تليفونات أصبح ميسرًا من خلال الشبكات الأرضية واللا سلكية. وعلى أية حال، فإن مبدأ الوصول إلى الشبكات يظل أمرًا مهمًّا.

الفرق بين الإنترنت والتليفون بالطبع هو في دمج الصوت مع الصورة، كما أن الإنترنت يعد منبرًا للأفراد، يتيح لهم الاتصال بالعديد من الأشخاص. فالمجرمون يمكنهم إنتاج أفلام فيديو بأنفسهم وتحميلها على المواقع. وأيضًا بإمكان الأفراد أن ينتجوا مقاطع فيديو لأنفسهم، ثم يقوموا بتحميلها على الـ «يو تيوب»؛ لكي يشاهدها الملايين. لقد برز الجانب الاتصالي والتشاركي للجانب الإعلامي على الإنترنت والمتنقل، كأحد المخرجات المؤثرة للثورة الرقمية. وقد ربط وليام كويك مصطلح عالم التدوين في موقعه (Dailypundit.com) – وهي دورية محافظة – بظهور المنتديات على الإنترنت؛ لإتاحة الحديث في أي موضوع

يمكن مناقشته (تحت الشمس). وتقدم مواقع خدمة التدوين الشهيرة، مثل: (http://www.technorati.com , http://www.baidu.cim) وجهات نظر مختلفة، بالإضافة إلى أنها تتيح فرصة الوصول الى المدونات الشهيرة. وبالتالي صار الإعلام التشاركي يسمى الإعلام الاجتماعي؛ لأن هذه الشبكات صممت لكي تتيح للأفراد والمجموعات إمكانية إقامة شبكات مكثفة، وفي نفس الوقت تصنيف اهتماماتهم الشخصية داخل تلك المناقشات والمعلومات التي يرغبون في الحصول عليها. والأمثلة الحالية – والتي ربما تكون قديمة في الوقت الذي يطبع فيه الكتاب – هي: (face book) ,(Myspace)، وأيضًا: RSS)، والـ (SMS، وكل الوسائل الأخرى – تعد جزءًا من أدوات برامج متاحة للهواة؛ لإنتاج المضامين التي يرغبون في إنتاجها، ووضعها على صفحاتهم أو مساحاتهم من أجل الاتصال. ولقد لجأ الإعلاميون الهواة – الذين تكرههم الشركات والحكومات على السواء – إلى الفراغات الاتصالية على الإنترنت، وهذه هي الفراغات التي يدور حولها الجدل، والتي لم تعد متاحة في مجال البث التقليدي.

موضوعات أساسية:

التداخل الإعلامي Convergence:

ظهر مصطلح التداخل مع ظهور شبكات الحاسبات؛ لتوصيف دمج الأنواع المختلفة من وسائط الإعلام – بما في ذلك النص والصوت والفيديو – في وسيط واحد. ولم يظهر مصطلح التداخل مع الحاسب؛ فكل التطورات التاريخية المهمة في مجال الإعلام اشتملت على التحول من إعلام قديم إلى أشكال ثقافية وسيطة جديدة. فالكتابة ظهرت معها نظام كودي بعلامات مرئية، حيث يكون بمقدور الكاتب أن يحدد الكلمات التي يمكن للقارئ أن يستخلصها من النص. والكتابة لم تحل محل الشفاهية، ولكنها حولتها، وأتت المطبعة معها بإمكانية تحويل الكتابة إلى كتب بأعداد كبيرة، وهو ما حدث مع أشكال أخرى ورقية مثل النشرات، التي كانت توزع للفقراء. إن قدرة مئات الآلاف من القرآء على القراءة بلغاتهم الأصلية ولغاتهم المحلية في نفس الوقت – أدى إلى تحويل التوزيع الاجتماعي للمعرفة، ولكن بالطبع لم تحل المطبعة محل الكتابة.

لقد ساعد التليجراف والراديو في سرعة نقل الأخبار والمعلومات الأخرى، حيث بدأت مرحلة جديدة من عالم الإعلام المتداخل، حيث صار الاتصال حيًّا في اللحظة نفسها.

وبدورهم، وحدت الحاسبات والإعلام الاجتماعي والإعلام المحمول – الإعلام الشفهي والمرئي، وحولت إحساسنا بالمشاركة إلى مجتمع عالمي.

التوزيع الاجتماعي للمعرفة (Social distribution of knowledge):

إن الإعلام يتصل اتصالًا مباشرًا بالتوزيع الاجتماعي للمعرفة، فمكتبات الفقراء المتنقلة – على سبيل المثال – ساعدت هؤلاء الذين ليست لديهم موارد لتعلم القراءة. وقد حررت المطبعة المعرفة من طباعة الرقائق وجعلتها ميسرة، وأتاح التليجراف والراديو الوصول إلى الأخبار ونقلها عالميًّا. لذلك كان هناك دائمًا توتر بين هؤلاء الذين يرغبون في احتواء وتقليد المعرفة؛ لأسباب ترجع في غالبيتها لأسباب سياسية، وبين هؤلاء الذين يرغبون في توسيع نطاق الحصول عليها.

أسئلة للمناقشة:

1- أحضر إلى قاعة الدراسة ملخصًا تاريخيًّا – بمعرفتك – عن الإعلام، على أن توضح التواريخ التي تعتقد أنها ذات أهمية، وتؤكد على التغييرات المهمة.

2- هل يمكنك أن تجد بدائل لمجلات الحوائط على الإنترنت؟

3- يقول أونج إن الإعلام – مثل الكتابة – يمكنه أن يحدث تغييرات تساعدنا في الطريقة التي نفكر بها، وقدرتنا على التفكير المجرد، هل توافقه على هذا؟ وهل يمكنك استخلاص أمثلة تتوافق مع هذه القضية؟

4- إلى أي مدى ترى أن الإنترنت، أو أي إعلام آخر ساعد في الوصول إلى المعرفة وتوزيعها؟ أحضر إلى قاعة الدراسة أمثلة توضح التغيرات المهمة للتوزيع الاجتماعي للمعرفة، التي قامت على التغيرات التي طرأت على الإعلام.

***

obeikandi.com